موت هِرَقْل - بكائية إلى رءوف عباس

6 يوليو 2008

د. عبادة كحيلة

لدى وفاة سيف الله خالد، اجتمعت بنات عمه يبكينه، ووصل خبرهن إلى عمر، فامتنع عن نهيهن، وقال: «على مثل أبى سليمان تبكى البواكي». أما أنا فأقول: «على مثل أبى حاتم تبكى البواكي». عند الحديث عن رءوف عباس، لا أدرى من أين أبدأ، ولا كيف أبدأ، وإلى أين ينتهى بى المسير. ليصدقنى القارئ القول، حين أترك قلمى على سجيته، يعبر عما يعتمل فى نفسى، ويكمن فى جوارحها. هو نسيج وحده بين غيره، أفاء عليه تعالى بخصال غريبة فى زماننا، غريبة فى مكاننا. كم من مآثر شاهدتها، ومآثر حكاها بعضهم قبل رحيله، ومآثر أخرى حكاها بعضهم الآخر بعد رحيله. معتد بنفسه يفيض كبرياء، إذا ما مس أحدهم طرفًا منها، عزوف عن الدنيا.. أعراضها ومظاهرها، لا يسعى إليها وإن سعت إليه، يتحفظ منه من لا يعرفه، وهو بعض أهله إذا اقترب منه، صريح إلى أبعد حدود الصراحة، مستقيم إلى أبعد حدود الاستقامة، أجهد خصومه فى تعقب زلة واحدة له، ولدينا مثال فى سيرته الذاتية.. ما أجملها من سيرة ذاتية. كان شديد الاقتراب من غيرهم، برغم من مسحة جهامة قد تعلو وجهه، شديد الحساسية تجاه الآخرين ومشاعر الآخرين، كريما معطاء، شواهد كرمه وعطائه أجل من أن تحصى، وأكبر من أن تحصى، متواضعا بسيطا، يجد نفسه فى تواضع العلماء وبساطة العلماء. كان قويا كأنه قُدّ من صخر، صلبًا عنيداً عند الملمات، نقيا كأنه النسيم فى أوان الربيع، قارئًا متعدد القراءات متنوعها، أديبًا تلمح فى سيرته الذاتية ذائقة حلوة، كم هى تلك الذائقة حلوة، حكاءً من الطراز الأول، يمتلك منك حين يحكى حواسك كل حواسك. هو الشهامة بعينها، هو الرجولة والبطولة والأخلاق الندية، ينهض لنجدة المظلوم دون صرخة منه، يعطيه من صفاء نفسه وروائها ما وسعه، وكذا كانت حاله معى، حين حاولت طيور الظلام أن تنهشنى بليل حالك من لياليا الحالكة، فصار يذكرنى بفارس من فرسان العصور الخالية، يصنع المعروف ويمضى، ثم يصنع المعروف ويمضى. لم ينغلق رءوف عباس على تخصصه، ولم يكتف بما استجد فيه، ولا ما أضافه إليه، إنما عاش عصره ومشكلات عصره، فكان منافحًا شرسًا عن أمته، يحامى عنها لا يهدأ فى محاماته عنها، منحازًا إلى فقرائها ومحروميها، يتعامل معهم كأنهم بعض من أهل وذويه وصحابه وبنيه. ومع كونه ناصريا، فلم يكن أبدًا من دراويش الناصرية، كما لم يفد على نحو مباشر منها، ولم يتخل فى الوقت نفسه عنها، طلبًا لمصلحة آنية، مثلما فعل غيره ممن يميلون مع الريح أينما تميل تلك الريح، مناهضًا للصهيونية والإمبريالية والعولمة الأمريكية، مناهضًا كذلك للأنظمة الفاسدة المستبدة، وأخصّها نظامنا الفاسد المستبد. يسألوننى لماذا أنت متحمس لـ «رءوف عباس»؟ أقول لأنه قدوة، ونحن نفتقد القدوة، لأنه إنسان، ونحن نفتقد الإنسان، لأنه العطاء ونحن نفتقد العطاء. قامة شاخمة تذكرنى بقامات أخرى شامخة، عرفتها وصاحبت أصحابها.. العقاد، حمدان، الهلالى نبيل. بصماته واضحة فى كتبه ومقالاته ومترجماته، واضحة كذلك فى تلامذته، فى الآثار التى خلّفها فى كل منصب شغله، وفى كل مهمة نيطت به. لم ينافق أحدًا.. لم يجامل.. لم يداهن، كان مرفوع الرأس عملاقًا. كنت شاهد عيان على مشهد أعز من أن يتكرر فى هذا الزمان، فعندما كان مرضه فى بداياته عرض عليه أمير عربى كريم، هو الشيخ سلطان القاسمى - نضَّر الله أيامه وأبقاه - عرض عليه أن يتكفل بعلاجه على نفقته خارج وطنه.. شكره رءوف عباس وأبى. عندما صار مرضه فى أخرياته، جلست إلى جواره أعوده، وألححت عليه أن يستجيب لعرض الأمير الكريم، وقلت له: «إنها سوف تكون مبادرة من أصدقاء رءوف عباس، وليست مبادرة من رءوف عباس».. لكنه عاود إباءه. أكبرته.. أكبرت إباءه.. كبرت مكانته الكبيرة فى نفسى.. سكت، تألمت.. وتأملت. غيره يطرقون أبواب أمراء غير هذا الأمير، يطرحون أنفسهم أمام عتبات قصورهم، فينفحونهم بأكياس أو ينفحونهم بحجات إلى بيت الله أو عمرات، ليغفر لهم تعالى ما تقدم من ذنوبهم - ما أكثرها - وما تأخر. معذرة صديقى إيمان يحيى، أنت تدعوه بالرجل الجبل، وأنا أدعوه بـ «هرقل».يحكون فى الأساطير أن هرقل هذا كان بطلاً أى نصف إله، أبوه زيوس رب الأرباب وأمه إنسية. ينسبون إلى هرقل هذا مجموعة من الخوارق، فقد قتل الأسد، واتخذ من جلده لباسًا له، كما قتل الأفعى متعددة الرءوس، وقبض على الثور الهائج، وحوّل مجرى النهر، وفك أسر بروميثيوس سارق النار، ونحّا أطلس عن مكانه، ليحمل الأرض على كاهليه، وأعان قومه فى حربهم ضد طروادة، وأعان آلهته فى حربها ضد المردة.. ولأنه نصف إله، فهو نصف إنسان.. لذا فقد مات، لكن أبناءه وحفدته عادوا بعد زمان إلى بلادهم بلاد اليونان، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها. مثلما عاد أبناء هرقل وحفدته إلى بلادهم

بلاد اليونانيين، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها، سوف يعود أبناء رءوف عباس وحفدته إلى بلادهم بلاد المصريين.. بلادهم المسلوبةالمنهوبة المغتصبة، ليبدأوا زمانًا جديدًا لها. كم من معارك خاضها ذلكم المحارب الأخير والكبير، وكم من معارك ربحها، أولاها معركته ضد نشأته الفقيرة فى أسرة فقيرة، لا تملك فى معركة الحياة سوى شرفها، فحافظ لها على شرفها وانتصر، ثم خاض معارك أخرى كبيرة وانتصر.. أما معركته ـ بل معاركه ـ ضد الفساد فى جامعته وضد الفساد فى الوطن الذى تنتمى إليه جامعته، فكانت أكبر منه، يكفيه شرف الشجاعة، ويكفيه شرف المحاولة. هناك من أعانه فى خوض معاركه.. فى طليعتهم سيدة فاضلة، من خيرة سيدات العالمين، سيدة اسمها سعاد، كانت بالنسبة له كل شيء فى حياته، وكان بالنسبة لها كل شيء فى حياتها. فى إحدى زوراتى له، وكان بين الصحوة والغياب، سألنى عنها.. كذبت وقلت: «إنها سوف تأتي» (حقيقة كانت تأتى كل يوم) وما كادت تمضى دقائق حتى أتت، فعلت وجهه ابتسامة، وسعدت أنا بتلك الابتسامة. انتصر رءوف عباس فى كل معركة خاضها، لكنه خسر معركته ضد المرض اللعين.. ما أتعس هذا المرض اللعين.. ما أشقاه. مات رءوف عباس. عند قبره وبعد أن أن وسدناه التراب، تذكرت العقاد وحين وقف عند قبر مى وقال: «شيمٌ حرٌ رضيات عذاب/ وحجى ينطق بالرأى الصواب/ وبيان ألمعى كالشهاب/ وجمال قُدُّسى لا يعاب/ كل هذا فى التراب/ آه من هذا التراب».ليتنى كنت شاعرًا لأنظم فى رءوف عباس قصائد، تزرى بالأصمعيات والمفضليات وكل ما أتى وما هو آت. أنا إذن حزين لموت رءوف عباس.. لا أتصور كيف تمضى الحياة بنا، وقد مضى رءوف عباس. يتسلل إلى من سجف الأبدية صوت أبى ذؤيب يقول: «من المنون ورَيبها تتوجعُ/ والدهر ليس بمعتب من يجزعُ/ أودى بنيى وأعقبونى غُصةً/ بعد الرقاد وعبرةً لا تقلع/ ولقد حرصت بأن أدافع عنهمُ/ فإذا المنية أقبلت لا تدفع/ وإذا المنية أنشبت أظفارها/ ألفيت كل تميمة لا تنفع». صدق والله أبو ذؤيب.. لكنه الفراق، ما أمرّ الفراق!!.. كيف تكون الحياة حياةً دون رءوف عباس، كيف يكون طعمها، بل كيف نألفها بما فيها من فساد نعافه ونظام لا نطيقه وهموم تمضى وهموم تجيء. كان رءوف عباس بالنسبة لنا كهفًا نلجأ إليه، حين تدهمنا حادثة من حادثات الزمان ودواهيه، نتلمس من قوته قوة، ومن عزمه عزمًا، ومن إرادته إرادة. كان نهرًا من العطاء.. نهرًا من العلم.. نهرًا منالوطنية، كان نهرًا فى كل شيء جميل جميل. تعلمنا منه نحن أصدقاءه وصحابته ومجايليه.. تعلمنا منه الكثير والكثير، لكن أهم ما تعلمناه منه.. الصمود أمام الأعاصير، وأن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض. إذن علينا أن نمضى مع أبى ذؤيب وهو يخاطب نفسه: «تجلدى للشامتين أُريهم/ أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ». ولكن.. فكما كان لـ «يسوع» تلامذة خانه أحدهم، بعد أن غسل أقدامهم وتناول معهم العشاء الأخير، كان لـ «رءوف عباس» تلامذة خانوه.. أكثر من «أحدهم» خانوه. قال لى ذات يوم: إنه يحتسب عند الله ما أسداه لهم من خير، أما هم فقد تحولوا عنده إلى موتى. «والناس صنفان موتى فى حياتهم/ وآخرون ببطن الأرض أحياءُ». صدق الشاعر، وصدق رءوف عباس، وكما مضى يسوع إلى أعلى عليين، ومضى خونة يسوع إلى أسفل سافلين، مضى رءوف عباس إلى أعلى عليين، ويمضى خونة رءوف عباس إلى أسفل سافلين. أخاطبه وقد صار فى «مقعد صدق عند مليك مقتدر»، وأعزيه بأن الكثرة ممن أحسن إليهم، يتذكرون إحسانه، ولا ينسون أياديه، ويدعونه تعالى بأن يمنحه دنيا خيرا من دنياه ويمنحهم هم صبرًا وسلوانًا. رءوف عباس.. أيها الإنسان الجميل والفارس النبيل.. يا أجمل من عرفت، وأنبل من عرفت. يا صديقى الأعز وأخى الذى لم تلده أمى.. وداعًا. ليغفر لى نزار، حين أقتبس من رائعته الناصرية، وأبدل كلمة واحدة فيها وأقول: «أنادى عليك أبا حاتم/ وأعرف أنى أنادى بواد/ وأعرف أنك لن تستجيب/ وأن الخوارق ليست تعاد».رءوف عباس حامد.. وداعًا.

http://www.al-araby.com/docs/1115/article2142177932.html